

إصلاح المجتمع وإعادة البناء



أ) حل مشاكل المجتمع المادية.

ب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الإصلاح الاجتماعي).

ت) الدولة والدعوة والمجتمع.

أ) حل مشاكل المجتمع المادية:

إنَّ معظم مشاكل المجتمع تأتي بسبب الفقر والجهل والظلم وغياب الوازع الديني، أو الحاجة المشروعة للإنسان والتي لا تُعالج ولا تُشبع إشباعاً مُستحقاً، فيلجأ أفراد المجتمع إلى ارتكاب الجريمة والانحراف السلوكي والأخلاقي، والمخالفات القانونية، وإرباك الأمن والنظام، وإحداث المشاكل في الأسرة

والمجتمع والدولة، لذا فإنّ من أولويات الإصلاح الاجتماعي هو حل مشاكل المجتمع: (مشكلة الفقر والبطالة، وتوفير الخدمات، وإقامة العدالة الاجتماعية، ونشر التعليم والثقافة... إلخ).

وكم ركّز القرآن على حلّ هذه المشاكل ووضع الأحكام والقوانين، والهدي الأخلاقي لحلّها ومعالجتها.. لمزيد من الإيضاح نستشهد ببعض الآيات الدالّة على ذلك:

قال تعالى واصفاً المؤمنين الملتزمين بأحكام الشريعة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّائِلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات/ 17-19).

وفي موضع آخر، يصف القرآن المؤمنين الملتزمين بأداء الحقوق المالية والمهتمين بحل مشاكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا عَمِلُوا * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج/ 23-25).

ويتحدّث القرآن عن نظام التوزيع والعدالة الاجتماعية، وحل مشاكل الطبقات الفقيرة والمحرومة، فيثبّت لنا النظام الآتي: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّاهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّاهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر/ 7).

ولمواجهة مشكلة الفقر، شرّع الإسلام الزكاة والخمس والصدقات والكفّارات المالية، ودعا إلى الإنفاق المادّي، وأوجب على المجتمع والدولة كفالة الفقراء العاجزين عن سدّ حوائجهم الاجتماعية والمعاشية وأولاها الاهتمام الكبير.

نقطف في هذا ما جاء في كتاب الإمام عليّ (ع) إلى واليه على مصر (مالك الأشر): «ثمّ إنّ في الطبقة السّفلى من الذين لا حيلة لهم، والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمّ منّي، فإنّ في هذه الطبقة قانراً ومعتزراً، واحفظ إنّ ما استحفظك من حقّه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غنّات صوّافي الإسلام في كلّ بلد، فإنّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلّ قد استرعىّ حقّه؛ فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنّك لا تُعذر بتصبيحك التّافيه لإحكام الكثير المهم. فلا تُشخصهم همّك عنهم، ولا تُصعّب عليهم خدّك لهم، وتفتقدّ

أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعَيُونَ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرَّغَ لِأُولَئِكَ ثِقَاتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضِعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعملْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى أَنْ يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ. وَكَلِّمْ فَأَعِذِرْ إِلَى أَنْ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ. وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَاةِ فِي السَّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كَلِّمَهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ أَنْ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْءُودِ [1] لَهُمْ».

(ب) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الإصلاح الاجتماعي):

وَإِذَا تَوَلَّي سَاعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَإِنِّي لَأُبْجِبُ الْفَاسَادَ [البقرة/ 205].

وَلَا تَجْعَلُوا أَعْرَضَةً لَأَيِّمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَإِنِّي سَمِيعٌ عَلِيمٌ [البقرة/ 224].

وَلَتَنكَرُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [آل عمران/ 104].

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبِغُونَهَا عِوَجًا وَإِذْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ فَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قُلَلًا فَكَثَّرَكُمُ اللَّهُ وَأَزْدًا لَكُمْ فَكَانَ اللَّهُ بِكُمُ اللَّيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ [الأعراف/ 86].

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَّسِقُوا [الأنفال/ 1].

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِذْ لِي مَا أَنْزَلْتُكُمْ عَلَيْهِ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود/

﴿فَلَا وَلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَدِّكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْزَلْنَا مِنْهُمْ وَاَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود/ 116-117).

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص/ 83).

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنََّّ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان/ 17).

القرآن في دعوته ومنهجه يريد أن يبني الإنسان الصالح والمجتمع الصالح، وأن يصلح المجتمع الإنساني عندما يحدث فيه الفساد والانحراف، وتلك هي رسالة الأنبياء جميعاً؛ ولذا أرسل الله سبحانه الأنبياء والمرسلين، جيلاً بعد جيل، لإصلاح شعوبهم ومجتمعاتهم.. إصلاح العقيدة والفكر والتفكير، وإصلاح السلوك والعمل ونظام الحياة، وإصلاح العلاقات الإنسانية الفاسدة.

المجتمع البشري كالجسم البشري تحدث فيه الأمراض.. يحدث فيه الفساد الفكري والأخلاقي والسلوكي والمالي والسياسي، لذلك دعا القرآن - كما رأينا في مقدمة البحث - إلى الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد وجعل ذلك واجباً تعبيرياً دياً، ومسؤولية جماعية وسياسية.

وبذا فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات الكفائية، التي يتوجَّه التكليف فيها للجميع، بل ويذهب بعض الفقهاء إلى وجوبها العيني.

والقرآن شرَّع هذه الفريضة، وشدَّد على الأمر بها، قال تعالى: ﴿وَلَتَذَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران/ 104).

وبنصِّه الواضح: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْذَهُوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ (التوبة / 71).

إنَّ القرآن في هاتين الآيتين يأمر بالعمل الجماعي.. أي العمل المؤسسي والتعاوني لمكافحة المنكر والفساد، ونشر الخير والمعروف والإحسان.. يأمر بالعمل التعاوني والجماعي الذي يجب أن يكون في عالمنا المعاصر على شكل منظمات ومؤسسات حكومية ومدنية منظّمة، تعمل على النهوض بهذا الواجب الإصلاحي الخطير، وتتبع الوسائل العلمية والتقنية الحديثة.

وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَكُونُوا مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْذَهُوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ﴾، فالآية تؤكد على أن يكون من المسلمين (أُمَّة)، أي جماعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وفي الآية الثانية، وصف القرآن المؤمنين بأنَّ بعضهم أولياء بعض.. يوالي ويُنصر ويؤازر بعضهم بعضاً فيعملون على تكوين جماعة متعاونة لإصلاح المجتمع واستئصال جذور المنكر والفساد ونشر الخير والمعروف، ولا يمكن لأي عمل جماعي أو مؤسسي أن يُمارس مهامه إلا بشكل منظم وتحت توجيه وإدارة ونظام عمل متكامل، وفي عالمنا المعاصر يحتاج إلى إمكانيات عديدة، ومنها استخدام التقنيات ووسائل الإعلام الحديثة والمشاريع الاجتماعية والخدمية والتربوية والتأهيلية والإمكانات المادية... إلخ.

وحين يُمارس أفراد المجتمع ومؤسساته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سيُحقّقون تطهير المجتمع من الجرائم والفساد والانحراف، كالقتل والسرقة والجريمة المنظّمة والإرهاب والرشوة والخيانة والغيبة والربِّبا والاحتكار والتلاعب بالأسعار والغش في الأسواق وظلم الآخرين من الرجال والنساء، وتسلبُ الحكّام الطُّغاة، والفساد المالي والإداري والقضائي، والكذب والزُّنا واللواط وشرب الخمر والمخدّرات، وعقوق الوالدين وأذى الجار وشهادة الزور، والفكر المنحرف المنحل والتحلل الأخلاقي... إلخ، فكلُّ تلك الأعمال هي منكرات يعمل المصلحون (الدولة والأفراد والمؤسسات) على تخليص المجتمع منها.

وبذا سيعمل أفراد المجتمع - إلى جانب القضاء وجهود الدولة - في عملية الإصلاح ومحاربة الفساد والانحراف وإعادة بناء المجتمع وإصلاحه وتخليصه من الطواهر السلبية الهدّامة، وكما رأينا في ما سبق من الآيات كيف حدّس القرآن من عاقبة الفساد وشدّد النكير على المفسدين، ودعا إلى ردعهم ومحاربتهم بأقسى العقوبات: ﴿إِنَّ زَمَّامًا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ

أَيَّدِيهِمْ ° وَأَرْجُلُهُمْ ° مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفِثُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (المائدة / 33).

وفي موسوعات الفقه الإسلامي، نجد منظومة متكاملة من الأحكام والقوانين الجنائية التي تُحدِّد وصف
هؤلاء الجُنَّاة، ونصَّ العقوبات التي يستحقُّها هؤلاء المفسدين في الأرض والمحاربين □، أي المحاربين
للحقِّ والعدل والأمن والسلام ومنهاج الهدى والإصلاح؛ ليستأصل الإرهاب والفساد، ويتحفَّق الإصلاح والأمن
والسلام في الأرض، وذلك ما يأمر به القرآن بنصِّه: □ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَدْرَجْتُمْ
وَمَا تَوَفَّى فَيْقِي إِلَّا بِالْإِصْلَاحِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَأَنْتَ الْغَالِبُ (هود / 88)، وقال تعالى:
□ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصَلِحُونَ (هود / 117).

ت) الدولة والدعوة والمجتمع:

إنَّ دراسة السيرة النبويَّة وتاريخ الدعوة الإسلاميَّة والتأمُّل الدقيق في القرآن الكريم، يكشف لنا
بوضوح العلاقة الوثيقة بين الدعوة والدولة والمجتمع.. بدأ الرسول (ص) دعوته في مكَّة المكرَّمة،
وظلَّ يدعو الناس إلى الهدى والإيمان والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي مدَّة ثلاثة عشر عاماً، بنى خلالها
طلیعة من الدُّعاة والمؤمنين بالرسالة الذين تحدَّوا التعذيب والقتل والطغيان والاستهزاء، وحين شعر
أعداء الهدى والإصلاح من طواغيت مكَّة وأتباعهم بالخطر على فكرهم الجاهلي وعقليَّتهم المتخلِّفة
ونظامهم الاجتماعي الظالم المنهار، ولم يتمكَّنوا من مواجهة فكر الدعوة وحركتها التغييرية في
المجتمع أو إيقاف نمو الدعوة، وتنامي المؤمنين بها رغم وسائل الإرهاب والتعذيب والقتل والحصار
والتجويع، وحين يئسوا من إيقاف تيار الدعوة الإسلاميَّة الجارف، لجأوا إلى التآمر والتخطيط لقتل
الرسول (ص)، فاختر رسول □ (ص) الهجرة إلى المدينة لينطلق من القاعدة التي أسَّسها طلیعة من
المؤمنين في المدينة المنوَّرة، فكانت الهجرة إلى المدينة بداية بناء المجتمع الإسلامي هناك.

وضع الرسول (ص) الأساس القانوني والتنظيمي لهذا المجتمع مُدوَّناً في وثيقة مدنية لتنظيم
المجتمع.. كتبها الرسول (ص) لمكوَّنت المجتمع، المسلمون وغيرهم، ثمَّ انطلق المسار الإسلامي وأقبل
الناس على الإيمان بالإسلام ديناً ومنهجاً للحياة ونظاماً للمجتمع، وأصبحت المدينة أرض صلبة للإسلام.

وشرع الوحي بإنزال الأحكام والقوانين لبناء المجتمع، وكان بناءً متيناً بُني على أساس التآخي

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا زَفَرًا مِنْ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُمُ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة/ 122).

وقوله عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل/ 125).

وفي بناء المجتمع، نُذَكِّر ببعض الآيات بعدما عرضناه بشكل مفصّل في هذا المجال.. نُذَكِّر بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة/ 71).

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة/ 2).

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران/ 103).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَعْيُنِكُمْ﴾ (الحجرات/ 10).

وكما شرع ووضع الأسس والمنهجية المتكاملة للمجتمع والدعوة، وضع الأسس وأصول الحكم والسياسة والدولة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بِهِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْحَدِيثَ لِقَوْمٍ يُطِيعُونَ﴾ (النساء/ 64).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِأَن تَتَّقُوا وَالْأَمَانَاتِ إِلَيْنَا أَهْلُهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ سَعْيَكُمْ يَشَتْ بِهِ ۚ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ لَيَصْرِفُونَ مَالَهُمْ إِلَىٰ أَيْدِي النَّاسِ ۚ فَأَعْيِدُوا إِلَيْهِمْ مَّا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (النساء/ 58-59).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ وَالِإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالرِّبَا ۚ وَأَلْبَغْيٍ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (النحل/ 90).

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ
السَّادِرِينَ لَا يَعْلَمُونَ (الجاثية / 18).

[1] - نهج البلاغة، الكتاب 53، عهده للأشتر، ص 608.